وحي المعرفة

للأستاذ اسماعيل مظهر

لا أقصد به الوحي الذي ينزله الله سبحانه وتعالى على المختارين من عباده ، أو المصطفين من خلائقه ، فان ذلك الوحي بعيد عن أن تدرك العقول من ماهيته شيئاً ، بل اعتقد أن جل ما تدرك منه إنما يتعلق بأعراضه وظواهره دون حقيقته وجوهره

ولا أقصد به الوحي الذي يقول به الروحانيون ، أولئك الذين يحاولون إثبات العلاقة بين الجواهر اللطيفة الروحانية ، وبين المواد الغليظة الجسمانية ، حتى بعد أن تفارق الأرواح الأبدان ، وتنفصم تلك العروة التي تربط بين المبدأ العلوي الحال في الأجسام السفلية

ولا أقصد به ذلك الوحي الذي حاول أوائلنا من السلف الصالح عليهم رحمة الله أن يثبتوا أن له بالأحلام وأضغاث الأحلام صلة ورابطة ؛ ولا الوحي الذي يقول به بعض المحدثين من أنصار العلامة فرويد ، أولئك الذين قلبوا آية الأحلام فجعلوا عالم الشهادة سبباً في الرؤى ، بعد أن كانت الرؤى عند الأقدمين نذيراً بما سوف يقع في عالم الشهادة

لا أقصد شيئاً من هذا ولا من غيره من الأشياء التي تجعل بين ما بعد الطبيعة والطبيعة رابطة ، قد يدركها التصور ، وقد ينفيها الادراك الحسي ، وإنما أقصد الوحي المادي ، وحي المعرفة تلك التي تشعر ونعتقد أن لها بكياننا المادي علاقة السبب والمسبب ، ورابطة العلة والمعلول . ذلك بأني أعتقد أن بعض العقول الممتازة ، ولا أعلم كيف هي ممتازة ، قد خصت بكفايات الوحي ، مستمداً من المعرفة التي تستوعبها . وكذلك أعتقد أن لبعض العقول ميولاً أشبه بميولنا النفسية ، وأن لبعضها دون بعض رباطاً بناحية معينة من نواحي المعرفة . فلبعضها رابطة بالعلم ، ولبعضها رابطة بالأدب والفلسفة ، ولبعضها رابطة بالفن ، ولبعضها رابطة بالدين . تلك صدور من المعرفة ، أو بالأحرى أشكال من المعرفة ، لكل منها حدودها التي يعينها العقل تعييناً قد يبلغ بعض الأحيان مبلغ اليقين ، وقد ينزل بعض الأحيان منزلة الشك ؛ ولكنها على قدر ما نعلم من اختصاص العقول بالتبريز في ناحية من نواحيها لها حدودها المتفق عليها عند من يعنون بوضع الحدود والفروق بين كفايات العقل الانساني

أما وقد نعلم من طريق اختصاص العقول بالتبريز في نواح معينة من المعرفة أن لصور المعرفة من علم وأدب وفلسفة وفن ودين حدوداً معينة ونخوماً مقررة في شريعة العقل ، فما نشك بجانب هذا في أن لكل عقل من العقول اختصاصاً في ناحية من نواحي المعرفة . نضيف إلى ذلك ظاهرة أخرى ؛ هي أن لبعض العقول فوق اختصاصها في التبريز في ناحية معينة من نواحي المعرفة ، قد خلقت وفيها موهبة خاصة تجعلها أكثر من غيرها استعداداً لتلقي نوع من أنواع الوحي ، تظهر آثاره باستيعاب قدر خاص من المعلومات قلّ أم كثر ، وهذه الآثار التي تتجلى في إدراك بعض العقول لحقائق أو نظريات ، قد تظهر عند درسها أنها قد لا تكون نتاجاً لدرس عميق ، ولا لأكباب على التفكير ، ولا تعمل أو تمحل في إدراك حقائق الأشياء ؛ بل غالباً ما تكون أشبه بالومضة السارية في الظلام أو الشعاع النير يفلق بنوره غياهب الشك ويقضي على الجهالات

أي سر هذا ؟ عقول تدرك بالومض كأنها اللوح الحساس وعقول تعجز عن إدراك ما تدرك تلك ! عقول تنفذ إلى صميم الأشياء بلمحة سانحة ، فتستخلص الحقائق الأولية وتنتزعها من تلك الأضغاث التي تراكمت حولها من فتنة الفكر وتحف الخيال ، وأخرى تستوعب ما تستوعب من مبادىء العلم وصور

تنهد ، ودارت بي الأرض دورة ... ثم فتحتُ عينيّ فرأيت منديلها يسقط من يدها ...

الله أكبر ! ! ما هذا السحر الذي كان يشع من فتنتها وهي تنهزم ؟ ... كانت ساكنة سكون ثورة ، وكان قلبها ينبض فلا يحتمل بدنها الرقيق نبضه فيتموّج ؛ وانعكس قلبي على وجنتيها فرأيتهما تلتهبان بالحب ، وكانت عيناها تتألم ، وكانت نظراتها تئن ! !

وزفر قلبها زفرة ، وزفرت عيناها زفرة أخرى ، ثم قالت وهي تجاهد نظرها إلي : أتحبني ؟

* * *

ثم ماذا ... ثم ماذا أيها العشاق ؟

(لنطا) السيد محمد زياده

الأدب ونظريات الفلسفة وتاريخ الفن وشرائع الدين ، وتظل في جودها تنظر الى تلك الومضات التي تفيض بها الأولى مأخوذة بأن ما أدركت الأولى قريب مما استوعبت ، ولكنه بعيد عن أحلامها قصي عن إدراكها !

* * *

يصعب على العلم أن يعلل هذا تعليلاً يصل به الى حقيقة الأمر منه . بل ولا شك في أن الخيال والتصور يقفان أمام هذه الظاهرة وقفة العلم من حيث العجز عن إدراك السر فيه . وليس لنا أن نستوحي العلم أو نذهب مع الخيال نعالج حقيقة هذه الظاهرة . وإنما نريد أن نحصر بحثنا في بعض الظواهر التي ترجع الى ما ندعوه وحي المعرفة

إذا مثلت لتاريخ الفكر البشري بشريط طويل من اللون الأسود ، وأردت أن تضع على مسافات معينة من هذا الشريط دوائر بيضاء ، تمثل بها لتلك الومضات الوحيية التي جادت بها عقول ممتازة ، وكان لها الأثر الدافع الى غايات طلبها الانسان وضرب في سبيل الوصول اليها ، لرأيت أن الفراغات السود بين الدوائر البيض قد تطول حدودها حتى يخيل اليك أن الانسانية منذ أبعد عصورها لم تستهد بغير عدد قليل من العقول التي وهبتها الطبيعة تلك الهبة السامية ، هبة الوحي تستنزل المعرفة . ولا شك في أنك تقف عند فكرة التوحيد في عقل اخناتون ، وفكرة الانسان الكامل في عقل سقراط ، وفكرة المنطق عند أرسطوطاليس ، وفكرة دوران الأرض والسببية الطبيعية في عقل غليليو ، وفكرة الأسلوب والشك في عقل ديكارت ، وفكرة المثاليات في عقل اسبينوزا و (كانت) ، وفكرة التطور في عقل دروين

قد نجمل لمثل هذه العقول منزلة وحدها ونرفعها الى مكانة من الفضل مفردة . فاذا نزلنا عن هذه درجة أمكننا أن نسرد من العقول الممتازة عدداً إن خص بهذه الموهبة فان اختصاصها بالفن يرفعها إلى درجة الأولى ، بل تلوح لنا كأنها التابع حيال النبوغ ، أو الصورة الواضحة في المرآة الصافية . ثم تنزل من هذه درجة ثم الى أخرى ، حتى تبلغ جداً لا نميز فيه بين العقول ، وحيث نأنس أن العلم بالأشياء وحفظ المتون ظهر الغيب ليس له من أثر في الابتكار ، كأنما تلك العقول ليست أكثر من نسخة مكررة في كتاب واحد

أكثر أولئك الذين نسميهم علماء أو نتعتهم بأنهم أدباء أو مفكرون ، هم من طبقة الذين نطلق عليهم طبقة « النسخة المكررة من الكتاب الواحد » . يعيشون في حدود ما قرأوا ؛ وقد يجيدون حفظ الكتاب إجادة تبلغ درجة الكمال ، ويفكرون على الأسلوب الذي رسمه الكتاب ، بل قلما يجيدون التفكير على ذلك الأسلوب فيفسدون ما قرأوا في الكتاب وينزلون به درجة بعد درجة حتى تمسخ عقولهم ما قرأوا وما حفظوا ، فيصبحون بذلك نسخة مبدلة من كتاب قرأوه ، أو فرض عليهم أن يقرأوه ليؤدوا بقراءته غرضاً لا يعترف به العلم ، ولا هو من شريعة الفهم في شيء

قد يكون السبب في ذلك راجعاً الى أن عقول هؤلاء قد صرفت مقسورة عن تنمية الموهبة التي أعدتها الطبيعة فيها ؛ وقد يكون للنشأة في ذلك أثرها وللبيئة طابعها الثابت ؛ وقد يكون لنظرة ما ينظر من ناحيتها في الحياة أثر في العقل ينتج ذلك الجمود العلمي والتحجر العقلي ؛ وقد يكون للخلق وللشهوات عوامل خفية تؤثر في اتجاه العقول

قد يكون ذلك وقد يكون أكثر منه . والحق أن من يفكر في مثل هذا الأمر يشعر بالعجز عن بلوغ الغاية في تعليله تعليلا علمياً يقبله العقل ، ولكن لنا أن نقول إن للوراثات المختلفة وحالات الحياة الأثر الأول في حدوث هذه الظواهر العجيبة

على أننا إلى جانب هذا لا نستطيع أن ننكر أن هذه الملكة ، ملكة الوصول إلى غايات من العلم والأدب والفن تكاد تظهر كأنها الوحي ، هي من الملكات التي يمكن أن تنميها التربية ، وتصححها النشأة ، وتقويها طرق التعليم . ذلك بأن العقل الانساني في ذاته يكاد يكون في أشياء الطبيعة بمثابة الوحي في جمود الحيوانية وموت الجمادات . قسه مثلاً على غرائز الحيوان أو تفاعل الجمادات الكيميائي ، وأنت واجد أنه في ظواهر الطبيعة نسيج وحده وطابع لا يتكرر . وهذا العقل بكفايته وملكاته ، تصبه البيئة والتعاليم والنشأة في قوالب تظهر بها مرونته وقدرته على التشكل في أشكال كثيرة ، واستعداده إلى قبول حالات جديدة ليست له من قبل . وما تلك الأشكال وهذه الحالات إلا آثار مختلفة يخلقها ما يحيط بالعقل من عوامل التدرج نحو بلوغ الغايات العليا من المعرفة ؛ تلك الغايات التي تنتهي إلى تلك الومضات

(البقية في أسفل الصفحة التالية)